

الفرق المسرحية العربية: فرقة جورج أبيض

المحاضرة الرابعة

- توطئة: لعبت الفرق المسرحية العربية دورا مهما في التعريف بفن المسرح في الأوساط العربية ابتداء من منتصف القرن 19م، ونشره في الأقطار العربية، وقد تنافست في هذا عدة فرق مسرحية معظمها كان من أرض الشام، واتجه معظمها نحو نوع مخصوص من المسرح هو المسرح الغنائي أو الأوبريت، انطلاقا من إدراك رواد المسرح الأوائل بأن الجمهور العربي كان منجذبا بقوة نحو الطرب والموسيقى والشعر، لهذا حققت هذه الفرق المسرحية للجمهور شغفه، كما حققت هدفها في الترويج لفن المسرح، ومهدت الطريق أمام فرق أخرى لتعرف بأنواع جديدة للمسرح لم يعهدها جمهور القرن 19م، وابتداء من القرن 20م تعرف الجمهور على المسرح الفني المترجم والمقتبس والمؤلف على حسب تقنيات المسرح العالمي، وتعرف الجمهور العربي على يد جورج أبيض وفرقة التمثيلية على المسرح الفني ابتداء من سنة 1912، وهي فرقة تمثيلية عربية امتد تأثيرها في المشرق كما في المغرب ومن خلال جولاتها الفنية تعرفت الكثير من الدول العربية على فن المسرح وعلى هديه أسست فرقها المسرحية الخاصة. فما هو دور هذه الفرق في تأسيس وإنشاء المسارح العربية؟

1- دور الفرق المسرحية العربية في القرن 19م في التعريف بالمسرح العربي: يعود الفضل الأول في إرساء وتطوير المسرح العربي إلى رواده الأوائل في كل من سوريا ولبنان، فقد أدى هؤلاء دورا هاما في وضع اللبنة الأولى للمسرح العربي، رغم أن الملاحظ أن هذا الفن تطور وانتعش أكثر في مصر، التي استقطبت العديد من الفرق المسرحية، التي وجدت في مصر المناخ المناسب لتقديم عروضها المسرحية، بعيدا عن أشكال الرقابة التي كانت تمارس على ممتني المسرح في الشام، ويعزى هذا إلى شبه الاستقلال الذي تمتعت به مصر، في تلك الحقبة الزمنية، وبعدها الجغرافي عن مركز الخلافة العثمانية، فقد قام الخديوي اسماعيل ببناء دار للأوبرا سنة 1869، بينما كانت بلاد الشام تتعرض، في تلك الفترة، لحركة قمع فكرية وسياسية عثمانية، مما حدا بكثير من الفنانين والشعراء إلى النزوح من بلاد الشام إلى مصر. وكانت أول فرقة مسرحية وفدت آنذاك (1876-1877) هي فرقة سليم النقاش، حيث نزلت في الإسكندرية الأكثر تحورا مقارنة ببلاد الشام، وقد تألفت الفرقة من اثني عشر ممثلا وأربع ممثلات، وقامت بتقديم بعض التمثيلات المترجمة عن اللغة الفرنسية. خلف سليم النقاش في الإشراف على الفرقة زميله يوسف خياط (1877-1895). كما ظهرت فرق شامية أخرى لعبت دورا مهما على ساحة المسرح المصري، وهي

فرقة سليمان القرداحي (1882-1909)، وفرقة سليمان الحداد (1887)، وفرقة اسكندر فرح (1881-1909)، هذا إضافة إلى فرقة أبو خليل القباني التي وصلت مصر هي الأخرى في نفس الفترة الزمنية (1884-1909) لتتابع عملها المسرحي الذي بدأته في سوريا.

يؤكد محمد مندور على أهمية ما قام به أهل الشام، مشيراً إلى انتقال أهم تلك الفرق من هناك والإقامة في مصر، كما ذكرنا أعلاه، ويضيف أنه كان لهؤلاء السوريين الأوائل، بنوع خاص، فضل في ظهور رائد فن الأوبرا والأوبريت المصري الشيخ سلامة حجازي (1852-1917)، الذي أخذ هذا الفن عن القباني، قبل أن يستقل ويكون فرقته الخاصة، التي عملت من سنة 1905-1914.

لم يقتصر دور الشوام على دورهم الريادي في إنشاء الفرق والمسارح، بل ساهموا أيضاً في ترجمة وتعريب الكثير من المسرحيات الغربية. كما أن ظهور الفرق الشامية في سنوات السبعينيات من القرن 19م على أرض مصر مثلت نهاية مرحلة وبداية لمرحلة جديدة، فقد أصبح المسرح أكثر تنظيماً عما كان عليه من قبل.. وانطلاقاً من هذا يطرح السؤال الآتي: ما هو الدور الذي لعبته مصر نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟

2- فرقة جورج أبيض المسرحية: يعتبر الكثير من الدارسين العقد الثاني من القرن العشرين إحدى أهم المحطات في تاريخ المسرح العربي الحديث، حيث كانت فترة خصب فني، إذ تعددت الجوقات وتجلبت المواهب، وقويت المنافسة بين الفرق، فألفينا فرقة سلامة حجازي وفرقة منيرة المهدي اللتان قدمتا المسرح الغنائي، وأدى عزيز عيد الملهاة (الفودفيل)، وقدم جورج أبيض المأساة. ولعل أبرز هذه الفرق يومئذ فرقة جورج أبيض (1880-1957) الأولى، التي ظهرت بعد مرحلة حاسمة في أطوار المسرح العربي، وقد خطا جورج أبيض بالمسرح أول خطوة حقيقية نحو إيجاد فن صحيح، مبني على الدراسة الأصولية، ومتصل بتراث المسرح الأوروبي العتيق، بأنواعه وتقنياته.

وأتاحت فرقته ظهور المؤلفين المسرحيين المحليين والملحنين المسرحيين، وكذلك ظهر لأول مرة الممثلون المدربون بالأسلوب العلمي، فقد عاد من فرنسا في عام 1910 على رأس فرقة فرنسية لتقديم العروض باللغة الفرنسية، وذلك بعد أن كان الخديوي عباس حلمي قد أوفده إلى هناك سنة 1904، حيث درس فيها أصول المسرح والتمثيل على يدي الممثل الفرنسي سيلفان، ونال إجازة المعهد العالي للتمثيل (الكونسرفتوار)، وقد عاد إلى مصر ومعه فرقة تمثيل فرنسية، كان من بين أفرادها الممثل جان هارفيه، وقدم بهذه الفرقة موسمين على مسرح الاسكندرية ودار الأوبرا بالقاهرة، ومثلت عدة مسرحيات منها:

«لويس الحادي عشر» و«تارتوف».. ثم عادت الفرقة إلى فرنسا بعد انتهاء عقدها. وفي عام 1911 كان الزعيم المصري سعد زغلول وزيرا للمعارف فدعا إليه جورج أبيض وطلب منه تكوين فرقة عربية بديلة عن الفرقة الفرنسية، على أن يقدم الأعمال الفرنسية بالعربية، وأسس فرقة من مشاهير الممثلين في تلك الأيام، ومنهم: أحمد فهمي، عزيز عيد، محمد بهجت، عمر وصفي وعبد المجيد شكري... ومن السيدات: مريم سوماط، ابريز استاني، ونظلة مزراحي... ومن الممثلين الهواة: زكي طليمات، فؤاد سليم، وعبد الرحمن رشدي... وعكف بعد ذلك عاما كاملا على إعداد وتعريب المسرحيات التي مثلها باللغة الفرنسية. وما لبث أن استقطب حوله مجموعة من أفضل المواهب والمحترفين، مما حفز كبار رجال القلم على التفرغ لأعمال الترجمة والاقتباس والتأليف، ومن أوائل الترجمات كانت مسرحية: «أوديب ملكا» لسوفوكليس ترجمها فرح أنطون، ومسرحية: «عطيل» لشكسبير ترجمها خليل مطران، ومسرحية: «لويس الحادي عشر». وقدم أيضا: «مضحك الملك»، «الشرف الياباني»، «الإيمان»، كما قدم في مسيرته الفنية مسرحيات لموليير كمسرحية: «تارتوف» التي قدمها أيضا مقتبسة تحت عنوان: «الشيخ متلوف»، وقدم لموليير أيضا: «مدرسة الأزواج»، «مدرسة النساء»، «النساء العاملات»... وهي من النوع الكوميدي من اقتباس جلال عثمان، حاول فيها جورج أبيض أن يتحول إلى ممثل كوميدي، لكنه فشل فشلا ذريعا لأنه كان مطبوعا بالفن التراجيدي، وكادت هذه التجربة أن تعصف بفرقته وتنتهي مسيرتها الطويلة.

وكان أول ما افتتحت به الفرقة نشاطها مسرحية شعرية بعنوان: «جريح بيروت» من تأليف الشاعر حافظ إبراهيم، كما قدمت في ما بعد مسرحية: «الحاكم بأمر الله» لإبراهيم رمزي، ومسرحيتا: «صلاح الدين ومملكة أورشليم»، و«مصر الجديدة ومصر القديمة» لفرح أنطون، والتي اعتبرت أول مسرحية مصرية.

لاقت خطوة جورج أبيض ترحيبا وتشجيعا واسعا فأقبل عليه الجمهور للمشاهدة من جميع الطبقات، وانضم إلى فرقته نخبة من المثقفين الذين كانوا حتى ذلك الحين يرفضون الانخراط في هذه الفنون مثل المحامي عبد الرحمن رشدي والشاعر فؤاد سليم والممثل والكاتب المسرحي الكبير يوسف وهبي، حيث أثمر تعاونهما سنة 1923 تقديم مسرحية: «مصرع كليوباترا»، وقد أدى هذا إلى ارتفاع مكانة الممثل والنص المسرحي معا. كما بدأ الاهتمام بالإخراج وإعداد الملابس والمناظر المناسبة لأحداث المسرحية، ولأول مرة دخلت الألحان المسجلة على النوتة الموسيقية في المسرح، خاصة وأن جورج أبيض جامل انعطاف الجمهور إلى الغناء فلم يخل المسرحيات منه، ووكل إلى سلامة حجازي تلحين مقطوعات جماعية كان لها صدى طيبا لدى الجمهور، وكان جورج أبيض قد استعان بالشيخ سلامة حجازي في بداية الحرب العالمية الأولى، وكون معه

فرقة أبيض وحجازي، وأثمر تعاونهما عن إخراج مسرحيات غنائية مترجمة، منها: «الإفريقية» و«مي وهوراس»، وأخرى مقتبسة مثل: «ثارات العرب»، لكن الفرقة كانت متنافرة ولم تعمر طويلا ليستقل كل من جورج وحجازي بنفسه وبفرقته في مجال الفن. وعموما فقد أحدث ظهور فرقة جورج أبيض انقلابا في الصنعة الفنية، وحولتها من عصر الارتجال إلى عصر الدراما والعلم، والإيمان بضرورة العمل المتواصل من أجل رفع أذواق الجماهير فنيا، وجعلت هذه الخطوة البعض يعلن أنها بداية مرحلة وانتهاء مرحلة لها خصائصها المميزة.

أسهم جورج أبيض في تكوين وإنشاء فرقة إتحاد الممثلين ثم الفرقة القومية، وقدم في إطارها مسرحية: «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم، ومسرحية: «أندروماك» التي ترجمها طه حسين، وأحيل على التقاعد سنة 1937، لكنه عاد إلى ممارسة الفن المسرحي بعد الثورة سنة 1952، وبتكليف من قادتها عين مديرا عاما للفرقة المصرية، التي قدمت مسرحيات: «الشرف والوطن»، و«شمشون ودليلة».

قامت فرقة جورج أبيض بالعديد من الجولات الفنية داخل مصر وخارجها، وتحديدا نحو فلسطين والعراق وسوريا ولبنان، وقدمت فيها عروضاً مسرحية: «صلاح الدين الأيوبي» ومسرحية: «هاملت» لشكسبير... وعرفت الجماهير العربية بفن المسرح، وأسهمت في بعث مسرح خاص في هذه الدول. كما قامت بجولات فنية نحو أمريكا وقدمت عروضاً مسرحية باللغة العربية. وقامت الفرقة ابتداءً أوائل العشرينات بجولات فنية نحو تونس والجزائر، وفي تونس طلبت منه جمعية الأدباء أن ينشئ لها مسرحاً تونسياً، ويشرف عليه مدة عام ونصف العام، فعادت الفرقة إلى القاهرة، واستمر جورج بتونس مدة عام ونصف العام، أنشأ خلالها أول معهد لفن المسرح بتونس، كما كان لعروض هذه الفرقة دوراً في بعث فن المسرح في البلدان المغاربية كالجزائر وليبيا والمغرب، التي راحت تجتهد في تشكيل فرق مسرحية أسوة بالفرق العربية التي كانت تزور هذه البلدان وتقدم عروضها فيها.

- خاتمة: تكمن أهمية فرقة جورج أبيض في مسار المسرح العربي، أنها قدمت نموذجاً لفن المسرح يستوجب إتباعه، نظراً لمسيرته واستجلابه لفن المسرح الحقيقي المتأصل لدى الغرب، والذي يجب أن يحتذى عربياً ليتم التأسيس لهذا الفن على أسس فنية وعلمية، تأخذ بعين الاعتبار النص المسرحي ومدى أصالته وتحقيقه لخصائص المسرح الفنية، فقدم نصوصاً مترجمة تعد كنماذج في المسرح العالمي، كما قدم أعمالاً مقتبسة ومعربة تراعي طبيعة النصوص الأصلية، وقدم نصوصاً مؤلفة لأدباء عرب راعوا فيها خصوصيات المسرح الفني. ولما كان المسرح فناً تمثيلاً فقد اهتم أبيض بالتمثيل والإخراج المسرحي

وبالديكور والملابس... وغيرها من العناصر المسرحية والتي تستهدف الجمهور بطريقة مباشرة وتدفعه للتفاعل مع العروض، لهذا لم يجد جورج أبيض صعوبة في استمالة الجمهور نحو فن التراجيديا، رغم أن الجمهور كان قد ألف وتفاعل أكثر مع المسرح الغنائي، الذي شاع بين الفرق المسرحية الأولى، رغم أنه ضمن بعض مسرحياته مقاطع غنائية مساييرا طبيعة الجمهور وميله إلى الطرب، كما أنه جازف بتقديم الكوميديا، رغم أنه ممثل مطبوع ومتمرس على التراجيديا، لا لشيء سوى أن يقدم فنا يحترم تنوع المسرح. والأهم من كل هذا أن جورج أبيض قد استطاع بفنه أن يؤثر في الجماهير العربية في المشرق كما في المغرب، من خلال جولاته الفنية، والتي كانت من ضمن أهم الأسباب التي دفعت المهتمين بفن المسرح في البلدان التي زارها لإنشاء فرق تمثيلية خاصة بهم وبعث الخطوات الأولى لحركية مسرحية في بلدانهم أسوة بجورج أبيض وفرقة التمثيلية.